# الصبقرية فى قيادة المجتمع

## "رومان رولان"

كل شئ زائل إلا الحقيقة ، ولن تموت الإنسانية الخالدة أبدا ، وسيظل الحق عزيزا بنفسه ، يرتفع فوق كل قوة ويعلو على كل كبرياء ، هكذا كان إيمان "رومان رولان" وهكذا كانت عقيدته ، ولقد وقف ذلك المفكر الإنسانى العظيم فى مهب العواصف طول حياته يجاهد لدعم هذه الحقيقة ، ويدعو فى إخلاص وحرارة إلى تعميم الإيمان بها بين الأمم والشعوب ، والأفراد والجماعات ، فما عرف أحد عنه النفاق فى رأيه ، أو الرياء فى دعوته ، ولا أمسك عليه الناس فى يوم ما بخوة بين لسانه وجنانه ، بل ظل دائما على الإباء والوفاء ، والصدق والإخلاص ، يغمر الجميع بعطفه وحنانه ، ويشمل الضعفاء بحبه وإنسانيته ، ويغنى فى كل ما يقول وما يكتب بالنغم الإنسانى النبيل .

وليس من قصدى فى هذا الحديث أن أؤرخ حياة رومان رولان ، فقد يكون أحق بهذا أبناء جلدته ، ومن هم ألصق به فى المنشأ والمنبت ، والذين يحفلون بتعداد الأيام والأعوام وسرد الوقائع والحوادث ، وإنما القصد الذى أرجو أن أوفق فيه ، هو أن أصور لك تلك العبقرية المثالية التى تتجلى فى شخصية رومان رولان ، والتى رفع لواءها ذلك المفكر الإنسانى الحر فى عصر هو الجحيم الذى لا يطاق ، والأتون المتأجج بالمطامع الخبيثة والأنانيـــة المجرمة والأحقاد الدفينة ، فاستطاع بهذا الصنيع الكريم أن يخلد خلود الإنسانية ، وأن يسمو سمو العبقرية .

لقد كان رولان ، كاتبا ، أديبا ، فنانا ، مفكرا ، عالمـا ، واسع الدراية بفنون العصر ومعارفه ، يمتاز بمواهب خارقة ، وألمعية صادقة ، ولكنه كان قبل هذا كله ، وبعد هذا كله ، قديسا فى معبد الإنسانية ، يجمع كل ما يملك من المواهب والصفات ، وقدمه قربانا فى ذلك المعبد ، وزلفى لذلك الدين ، ولقد كان "رولان" يجرى فى ذلك على طبيعة موروثة ، ويستجيب لنزعة خير انحدرت إليه من والديه ، ولقد ظهرت هذه النزعة فى نفسه قوية جارفة وهو لمـا يزل طالبا فى معاهد العلم ، إذ كان فى ذلك العهد يتصوف تصوفا فكريا ، ويقبل على دراسة الأدب والفن فى شغف وابتهال ، ولكنه لم يرد أن يجعل نفسه كتابا من الكتب لكثرة إقباله على القراءة كما يقول "جوتيه" ، ولم يرد أن يسلم نفسه إلى ذلك الأدب العبوس والفن المقطع الأوصال كما يقول هو ، بل كان يعد نفسه لتبليغ رسالة ، ويجاهد فى التمـاس طريق للهداية ، فكان يسأل نفسه ماذا يصنع ! ... أجل ماذا يصنع ؟ ! وهو يرى النفوس قد نغلت ، والقلوب قد فسدت ، ومذاهب الفكر قد تلوثت ، وأوربا التى تأخذ بزمام العالم ، تسيرها المطامع والأغراض ، وتتسلط عليها روح جنونية ظمأى إلى الدماء ، وتجار السياسة

يتنافسون على صفحات التاريخ الكاذب ، فكل منهم يريد أن يكون له فيه أفسح مكان ، وسماسرة الأدب والفكر يضعون أنفسهم رهن إشارتهم ، ويتطوعون للسير فى ركاب الشر وموكب الظلم والاستعباد ، ومعالم الحضارة تنهار تحت هذه الأعباء الثقيلة البغيضة ، وقيم الفكر والأخلاق تذهب مذهب الباطل ويطويها الإهمال والنسيان ، كأنها قبور الموتى . .

كان "رولان" يرى كل هذا تحت عينيه ، فتتملكه الحيرة ويستولى عليه القلق ، فيسأل نفسه وهو على باب الطريق ماذا يصنع ، ويلح على نفسه كثيرا فى السؤال ، وإنه ليصف هذه الفترة من حياته بقلمه فيقول : " لا أنكر أننى كنت خلال سنوات مضت (١٨٨٥ — ٨٧ ) مضت فى اضطراب فكرى وفوضى عقلية ، وقد اضطرنى ذلك الى البحث عن طريق الخلاص فى حرارة وإخلاص وألم وتضرع ، وكنت أعيش فى باريس ، ولكنى كنت أعيش فى عزلة منقطعة ، تتملكنى روح ثائرة تنتشى بالفن والموسيقى ، تجهل الحقيقة ولكنها تهتدى إليها رويدا رويدا وكنت أتطلع عن يمينى وعن يسارى لعلنى أجد من يأخذ بيدى ، فأخذت جملة من نصائح " رينان " فى فرنسا ، واستنجدت " بتولستوى " " وابسن " فى الخارج ، وكلا الاثنين أجابنى . . . "

"ولقد أحببت "تولستوى" وامتلأت نفسى بحبه فى كل لحظة ، وكنت محاط فى حياتى الأولى بجوه الفكرى ، حتى كنت أجد نفسى فى شخوص رواياته ، وأعترف اعترافا صادقا للقارىء أن ذلك الرجل الكبير كان رائدى فى الحياة وعونى على فوضى العصر الأدبية والفكرية بذكائه النافذ وعواطفه السامية ودعوته الى الحقيقة المطلقة والى الخير العام دعوة صادقة . . على أنى فى الجهة الثانية كنت أجد نفسى فى الفن منذ الحداثة ، كنت مشغوفا به وبخاصة بالموسيقى التى كانت غذائى ونشوة أحلامى ، وكنت لا أجد شيئا يؤثر فى نفسى مثل النظر فى تحفة فنية صاغها فنان موهوب حاذق ، أو سماع لحن من إيقاع "بتهوفن" العبقرى ، أو تأمل فى لوحة من لوحات " رامبرانت " العظيم ، هنا كنت انسى ذاتى ، وتذوب أنانيتى ، اذ أشاهد الطيبة تتدفق من تلك القلوب الكبيرة ، وأحس باشعاع ذكائهم يلمع فى ناظرى ، ومن هنا اكتسبت عاطفتى الأخوية نحو الناس ، اكتسبتها من التعاطف المشترك ، وبعد مشاهدتى تمثيل رواية " اوديب الملك " وسماع الايقاع الموسيقى برفقة جوقة من المغنين . .

هذا هو الغذاء الذى تشبعت به شخصية رولان ، وبه نضجت واستوت ، غذاء الفن الصادق ، والحقيقة الانسانية المطلقة ، وما كان فناؤه فى الفن الا فناء فى تلك الحقيقة ، وما كان حبه لتولستوى إلا حبا للانسانية ، فهل استطاع "رولان" أن يجد فى هذا خلاصا من قلقه ويأسه ، وأن يتلمس طريق الحق الذى كان ينشده فى رسالة الأدب والفن وميمة الفكر فى الحياة ؟ !

لقد وجد الطريق التي توائم طبيعته ، وتلائم فطرته ، واهتدى الى ما يجب أن تحمله وتحمله العبقرية الفنية فى تبليغ رسالتها الى الناس ، وقد شرح ذلك فى مؤلفاته وروايات وفصوله التى أذاعها فى الصحف ، ولقد أجمل ذلك الشرح الطويل إجمالا وافيا فى إحدى رسائله إذ يقول : "إن نتاج العلم الصحيح والفن الصادق هو التضحية . . وأنا أول من يدعو الى إدخال الفن فى البيئة الشعبية وتجريده من كل تلك الامتيازات والاعتبارات الرسمية ، يجب أن لا يكون الفن مهنة بل الهاما ، لأن الالهام يحمل دائما على التضحية . . وليس العالم اليوم بمفتقر الى ألوف التحف الفنية التى يعرضها أصحابها فى معرض باريس من سنة الى الى أخرى ، وليست له حاجة بتلك القطع التمثيلية والروايات التى يمطره بها كل يوم أولئك الكاتبون ، يكفى أن يكون فى كل جيل من الناس ثلاثة أو أربعة من العباقرة يسودهم عقل راجح وطيبة متناهية ، و يقودهم شعور حى بجمال الأشياء ، فبذلك يخلقون شعبا يحسن التطلع والاحساس والفهم ، ويدرك ما هو جميل وطيب فى هذا العالم ، ويهذب ما يحيط به من حوائج الحياة " .

" وأنا لا أستاء ولا أغضب أبدا إذا ما ألزم الفنانون بحمل نصيبهم من العمل اليدوى الضرورى لخدمة المجتمع ودعم الكيان الاجتماعى ، ولكن بشرط أن يوزع ذلك توزيعا عادلا بين المجتمع ، وحينذاك تصبح الأعمال خفيفة العبء ، فلا ينوء بثقلها نوابغ الفنانين ، ويجدون عندهم القدرة والوقت لإنجاز آثارهم وتحفهم الفنية " .

" إن الصفات العابسة المصطنعة والإحساسات المقطعة الأوصال التى يصطبغ بها الفن فى هذه الأيام ، ترجع الى أن أصول ذلك الفن غير عريقة فى حياة الأرض ، ولأنه نتاج لأشباح رجال ، و إفراز ديدان كل قدرتها أنها استطاعت امتصاص كلمات وأنغام وألوان ، وعلى أى حال ، فان جمال الأثر الفنى لا يضيع ولا يموت . . وهنا لا يسعنى إلا أن أسأل كل فنان مؤمن بالفن ، هل يكثر إنتاجنا اذا كنا نعزل عن العمل طول النهار ، أم اذا كنا أحرارا ساعتين فقط من ساعات اليوم ، أما رأيى أنا فهو أن الانهماك فى العمل الى حد المضايقة لا يضر الفكر ، وأن الحرية الزائدة تضعف الالهام ، وأن الانسان فى حاجة دائمة الى استحثاث ، ولو لم تكن حياته قصيرة لما رأيناه يسرع فى طلبها والتلهف عليها " .

" إن النبوغ يرحب بالعوائق ، بل إن العوائق هى التى تخلق النبوغ ، أما المواهب فانها تملأ العالم ، والموهوبون كثيرون تعج بهم مدنيتنا الحاضرة ، ولكن ضررهم أكبر من نفعهم ، ولن يخسر العالم أو يصيبه ضرر كبير إذا ما فقد أكثر الرسامين والموسيقيين والكتاب والنقاد والصحفيين ، وربما كان ذهابهم سعادة للعالم ! وكثيرا ما أفكر فى حريق مكتبة الاسكندرية فأقول لنفسى : ما نفع ذلك الماضى الميت ، ولو أننا ورثناه لتراكم فى طريق حياتنا ، وصعب علينا إزالته " .

هذا هو مجمل الرأى عند رومان رولان فى مسألة الفن وصلته بالحياة وبالمجتمع ، وفيما يجب أن يضطلع به الفنانون من الواجب نحو الإنسانية ، وهو رأى أوضحه فى إحدى رسائله التى كتبها فى شيخوخته ، أى بعد أن محص الحقائق ، وتمت له التجربة ، وشمع من النظر فى تقلبات الحياة ، وإنك لتلمح فى هذه السطور صورة صادقة لشخصية ذلك المفكر الكبير ، فليس ثمة ما يفصل بين رأيه وشخصيته ، لأنه اعتاد أن يتكلم من أعماق ضميره ، يرسل فكرته فى غير خوف ولا ملق ولا رياء ، ويعلن عن عقيدته ولا يعنيه ما يقول الناس ، فحسبه أنه يجد الحق ويحبذ الانصاف .

وهكذا عاش رولان يجد العمل لأنه القوة التى ترفع من شرف الانسان وتكون شخصيته ، ويدعو رجال الفن الى التضحية من أجل الغير لأنها ضريبة الانسانية التى تفيض بها قلوبهم والتى يجب أن تكون مصدر ما يبتكرون من الأضواء على المجتمع وما ينتجون من الآثار للناس ، ثم هو يجعل الأساس لهذا كله الحقيقة ، يعنى الحقيقة العامة الخالدة ، التى يفرضها العدل الإنسانى فى الأرض ويقضى بها للجميع ، وهنا مناط الرجاء بالفن ، ومجال الإنتاج للموهوبين ، فيجب أن نغذى فى نفوس الناس حب الحقيقة ، وأن نشعرها الحاجة إلى الحقيقة ، وأن نعودها البحث عن الحقيقة ...

ولكن ما كنه هذه الحقيقة التى ينشدها ويدعو إليها رولان؟ ما مصدرها وما حدودها؟ هى العدل الذى يقضى بالحق بين الجميع ، ويرفع لواء الأخوة بين سائر الناس فى الأرض ، فلا يرتفع فرد على حساب غيره ، ولا تعلو أمة على أشلاء أخرى ، العدل الذى لا يصدر عن قلب تحمله المغالاة على مجاوزة كل حد ، أو عن عاطفة مبهمة تقود الإنسان إلى مالا يدرى وإنما هو العدل الذى يصدر عن العقل الواعى ، والفكر القويم ، والضمير الحر .

فرولان لم يكن ينادى بدعوة شاعرية تتوج بها عاطفته ، ولكنه كان صاحب مذهب فكرى يستمد وجوده من العقل ، وهنا مجال الفرق بينه وبين الفيلسوف الروسى (تولستوى) ووجه الشبه بينه وبين العالم الانجليزى (برتراندرسل) ، وكثيرون من المفكرين لهم عقل رولان وتفكيره ، ولكن عبقرية الرجل كانت تتجلى فى ضميره ، ذلك الضمير الواعى دائما ، الممتد الآفاق دائما ، فما خذل صاحبه فى موقف من المواقف ، ولا تخلف عنه فى موطن من الشدة ، بل ظل يخلق به فى جو الإنسانية الشاملة والأخوة الكاملة واضعا الأعتبارات السياسية والنزعات الجنسية تحت قدميه .

كان عام ١٩١٣ نذير الشر ، وطالع الشؤم ، إذ بدا لدول أوربا المفتونة بقوتها أن ترقص على حافة الهاوية ، وأخذت كل دولة تحشد جميع ما تملك من القوة والعدة استعدادا للمعركة ، فتوجس رولان الشر ، وأدرك أنها نقمة ستأتى على معالم الحضارة من القواعد ، وستزلزل كيان العالم ، وتزيد فى بؤس الناس وشقائهم ، فاهاب بالضمير الإنسانى أن يتيقظ ،

وأرسل الصيحة إثر الصيحة محذرا القوم من سوء المغبة ووخيم العاقبة ، ولكن الجنون كان قد طغى على العقول حتى عقول أهل الفكر ورجال الأدب ، فقد اجتمع عدد كبير من الأدباء والعلماء فى ألمانيا برياسة (جرهارت هاوبتمان) وأذاعوا على الملأ بيانا يمجدون فيه الحرب ، ويفتون بمشروعيتها ، ويجعلون من حق القوى أن يتسلط على الضعيف ، وكان أن نهض فى فرنسا ( موريس باريس ) يقود جماعة من الأدباء فى دعوة أبناء وطنه إلى مثل هـذا الغرض ، وهكذا أصبح الأدب الذى عهده الناس صوت الإنسانية وهو حرب على الإنسانية ، واشتعلت الحماسة فى النفوس والرءوس حتى صارت جنونا .

ولما نهضت فرنسا للحرب كان قانون التجنيد يقضى على "رومان رولان" بالعمل فى صفوف المحاربين ، وأداء ما كانوا يسمونه بضريبة الوطن ، ولم يكن رولان جبانا ، ولا خائر العزيمة ، ولكنه كان انسانا يرى القتل وسفك الدماء على أى اعتبار جريمة فى شرعة الانسانية ، فأبى أن يحمل السلاح ، وترك وطنه وآثر الاقامة فى سويسرا ، ومن هناك أخذ يحلق فى جو المعركة ، ويفتح العيون على مواقع الشر ، ويندد بالوحشية الانسانية المتجنية ، وقد جمع رولان هذه الصيحات فى كتاب سماه " فى جو المعركة " وبه ذاع صيته فى العالم ، وارتفع صوته فى الآفاق .

وجاءت معركة السلم بعد معركة الحرب ، وأصر الغالبون على أن يكون لهم السلطان المطلق على المغلوبين ، وأصبح الاستعمار فى سياستهم شريعة واجبة فوقف رولان ينافح عن حقوق الانسانية وينادى بانصافها من أنانية الغاصبين ، حارب رولان الطغيان فى كل لون من ألوانه ، وحارب الاستعمار فى أى شكل من أشكاله ، ووقف فى جانب الأمم المهيضة ، والشعوب المهضومة ، والأفكار الحرة التى تنشد العزة والاستقلال ، لم يمل به الهوى نحو شعبه ، ولم يتسلط عليه التعصب لوطنه ، بل كان صوته أجرأ مايكون فى مهاجمة فرنسا والتشنيع على سياستها الاستعمارية وفضح ألاعيب رجال السياسة فيها .

ناصر رولان الأمم المجاهدة لحياة السيادة والاستقلال ، وأرسل شواظ فكره الملتهب على أولئك الذين يدوسون حقوق الانسانية فى استعباد الشعوب ، ونحن أبناء الشرق ، من ادناه الى أقصاه ، نحتفظ له فى ذلك أطيب الذكرى ، ونحمل له فى طوايا نفوسنا ودا بود ، وعطفا بعطف ، دافع عن الهند فى محنتها ، ونافح عن الهند الصينية من أغراض السياسة الفرنسية ووقف فى جانب الصين لما اقتحمت أرضها اليابان ، واستهوته شخصية "غاندى" فكتب عنه كتابا يعتبر من أمتع آثاره ، فلا عجب إن أحبه الشرق وأجله ، وقدر فيه تلك الانسانية الفياضة التى حررت عواطفه من التعصب الممقوت ، وسمت به على الارتطام فى حمأة الأنانية المجرمة ، المغرضة .

فأى رجل كان ذلك المفكر العظيم ؟ إنه إنسان كامل ، إنه صورة صادقة ناطقة للعبقرية المثالية التى تعتز بشخصيتها وبفكرتها ، وتتمتع كرامتها فوق كل شيء .

نال رولان جائزة الأدب الكبرى من الأكاديمية عام ١٩١٣ تقديرا لفنه وأدبه وإكبارا لقوة روحه وعطفه ، فما أبطره هذا ولا أخضع ضميره لرق الرسميات ...

ونال جائزة نوبل للسلام عام ١٩١٦ اعترافا بصدق يقينه وسمو عاطفته وبالغ إنسانيته فما عناه هذا بشيء ، بل أرسل إلى ناشر كتبه يخبره بالتنازل عن هذه الجائزة لأعمال الخير ، وحسبه أن يفكر تفكيرا حرا .

واحتفل العالم ببلوغه الستين من عمره عام ١٩٢٦ ، وانطلقت ألسن الخطباء وأقلام الأدباء تمجد أدبه وشخصه ، فما سره من هذا إلا أن يرى النصر للفكرة التى يمثلها ، والتى يرجو أن تكون مبدأ العالم أجمع ، ورسالة الأدب والفن .

وها هو ذا قد أغمض عينيه إغماضة الأبد .

أغمض عينيه على أتون المعركة المستعر ، وعلى السياسة المجنونة بشريعة النار والدمار ، فماذا كان يحس إزاء هذا وهو يرسل آخر نفس بين جوانحه ؟ ! يقينا أن إيمانه لم يفارقه ، وأن أنفاسه الأخيرة كانت تتردد بعقيدته الأبدية ؟ : كل شيء زائل الا الحقيقة ؛ وكل مذهب باطل إلا مذهب الانسانية . . .

محمد فهمى عبد اللطيف

---

كل طريق له نهاية ؛ فتمسك بالصبر ولا تحزن
أن الدينار يقتل نعوسا ؛ أكثر مما يقتل السيف أجسادا
( ولترسكوت )